

بين اللسان والأذن

الله الحمد ، هو ربنا الأعلى ، « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » وهو الذي يحصى على العباد أعمالهم وأقوالهم « في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ، سبحانه جلت عظمته وعمت قدرته وعزت كلمته « له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . . . تشهد أن لا إله إلا أنت تسمع وترى ، وأنت رب الآيات الكبرى ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدا ورسولا ، خير من اهتدى بطريقك المثلث ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى دوحة بيتك الطاهرة ، وعصبة صحابته القوية الظاهرة ، وشيعته العاملين للأولى والآخرة ، أولئك « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

نشأت اللغة أول ما نشأت ليستعملها الإنسان عند الضرورة والحاجة ، وليقتصر فيها على المقدار اللازم منها ؛ يجمع فيطلب الطعام ، ويعطش فيطلب الماء ، ويريد شخصا فينادى عليه ، ويحس بخطر فيحذر منه ؛ وهكذا . ولكن الناس على مرور الأجيال والأعوام ، أساءوا استعمال النطق والكلام ، فصاروا « يلتون ويعجنون » ، يلوون ألسنتهم فى أفواههم بسبب وبغير سبب ، ويصخبون ويثرثرون عند المناسبة وعند اندامها ، ويصدعون الرؤس بحديثهم المعلوم ونطقهم المعلوم ، حتى أصبحت أمانة الكثيرين الذين ضاقوا بالكلام والتكلمين ، وبالثروة والثرثارين ، أن يجدوا لهم مهربا نائيا بعيدا عن هؤلاء وهؤلاء ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك والمرء يقضى عليه أن يقبل ما لا يرتضيه ، وأن يصبر على ما يعاينه أو يعاديه ، وشتان بين ما يكون ، وبين ما يتمنى المرء أن يكون ! . . .

ولو تدر أولئك الصاحبون الناطقون بلا سكوت أمر نفوسهم ، لأدركوا أن اللسان آلة تستخدم عند اللزوم ،

لا فى سائر الأحوال أو على وجه العموم ، وأن اللغة وسيلة يتدبر بها صاحبها إلى قضاء أمر أو بلوغ غاية ؛ وكأن الله سبحانه خلق للأنسان لسانا واحدا كما خلق له قلبا واحدا وعقلا واحدا ، ليشعره بأن اللسان يجب أن يكون من الضبط والإحكام ، وفى علو القيمة وسمو الرتبة ، كالعقل سواء بسواء ، لا أن يكون للاستعمال المستمر أو الحركة الدائمة ، أو التثقل الكثير كالتقدمين واليدين والعينين ؛ وكأن الله سبحانه قد أعطى الإنسان رجلين ، لأن الرجل يحتاج إلى أخت معها ، ليوجد التوازن والتعاون ، ولأنه لو أعطاه رجلا واحدة لكان سيره وثبا وقفزا ، ولما استطاع الذهاب والإياب كالعتاد ؛ وأعطاه يدين لأن اليد تستلزم أخرى لتستطيعا إمساك الأشياء والقبض عليها ، ولتكون اليمنى لرفيع الأمور وظاهر الأشياء ، وتكون اليسرى للخسيس من الحاجات ، ولأن اليد الواحدة لا تصفق وحدها كما يقولون ؛ وأعطاه عينين تبصران وتقرأن وتلمحان ، وتجهان بسهولة ذات اليمين وذات الشمال ، وبذلك يمكنه إدامة النظر واستخدامه دون إجهاد . . . وأعطاه أذنين ليطلب بهما الاستماع إلى ما ينفع ويفيد ، ولكي يلتقط بإحداها ما يفوت الأخرى . . . ولكنه مع هذا كله أعطاه لسانا واحدا ليكتفى بالقليل من الكلام . ولا يسرف فى استخدامه كغيره من متعدد الأعضاء . أو بعبارة أخرى أعطاه الله لسانا واحدا مع أنه أعطاه أذنين ليوحى إليه من طرف خفى بأن الواجب عليه أن يسمع ضعف ما يقول ، فإذا تكلم ساعة سمع ساعتين ، وهكذا ، ولكن الكثير من الناس سدوا آذانهم فلا يسمعون ولا ينتصحنون ، وأطلقوا أعنة ألسنتهم بالسوء والفحشاء فعدت عقارب لا تكف عن اللدغ ، أو ثعابين لا تمل الحركة ، أو سياطا لا تنقطع عن الفرقة والطين ، فتراهم يجيدون الكلام وتشقيقه ، ويفرضونه على الناس فى الغث والسمين ، وفى الحق والباطل وفى المشروع والمنوع ؛ ولكنهم لا يحسنون الاستماع ،

بل لا يريدون أن يستمعوا ، وإذا سارتمهم أو لا ينتهم أبوا أن يمتنعوا ، ولسنا ندرى والله ماذا كان يحدث لو أن الله سبحانه وضع في فم كل واحد من هؤلاء لسانين ، مع أننا لم نطق بلأيا لسان واحد ؟ ... لو حدث هذا لكانت الداهية الدهية ، ولكن الله لطيف بعباده الضعفاء ...

ولو أن هؤلاء « اللاتين » بثرتهم وحديثهم الذي لا ينقطع ، يتكلمون في خير ، أو يشرحون في دعوة ، أو يحرضون على معروف ، أو يبحثون في مصالحة للدين أو للدنيا ، لجدنا لهم أمرهم . مع أن خير الكلام ما قل ودل والبلاغة الإيجاز . ومن الإيجاز ما هو إعجاز ، ولكن هؤلاء في الأعم الأغلب لا يتحدثون إلا في فضول الكلام وباطل القول وفاسق الحديث ، من السباب والشتائم ، والجدال والمراء ، والسخرية والاستهزاء ، والشقاق والنفاق وطعن الأعراض وقرض اللحوم البشرية بلا استحياء ...

وهل ابتليت يا أخى يوما باستماع ما يدور من جدل سقيم وتقاش فارغ وحديث باطل وحوار أثيم منكر في المحافل والندوات ، والمجالس والجماعات ، والأحزاب والهيئات ، وفي محيط الأسر والعائلات ؟ ... لكان هؤلاء لم يسمعوا قول الحق تبارك وتعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . وكأنهم لم يسمعوا أن عقبة بن عامر سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليدعك بيتك ، وابك على خطيئتك . وأن الرسول قال أيضاً : وهل يكب الناس في النار على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم ... كأنهم لم يسمعوا هذا فنظفوا بلا حساب يستخدمون تلك الآلة الصغيرة الخطيرة جدا التي تسمى اللسان ، يستخدمونها فيما يذهب المروءة ويغش الشرف ، ويقطع أواصر الأخوة والصفاء بين بني الإنسان ؟ ...

نبشون بربكم يا بني الإسلام ماذا في مجالسنا العامة والخاصة اليوم من علم ينتفع به ، أو توجيه كريم صادق نجتمع عليه ، أو حديث رفيع نبيل نتمعن فيه ؟ ... وأين نظام الكلام وحسن الاسماع في هذه المجالس ؟ ... يتحدث المتحدث فيسارع الآخر بالاعتراض أو الإعراض ، وقد يسبق مسارعا بحكم أو تعليق يتنبأ به قبل أن تتم جملة المتحدث الأولى ، وقد يتحدث ثلاثة أو أربعة دفعة واحدة ، وكل منهم يطمع وبلح في أن يسمع له الآخرون . وقد تستبد شهوة الكلام

بخفيف عقل أو ثقيل ظلل أو سليل لسان أو وضع أسلوب ، فلا يمكن سواه من عرض رأيه أو إبداء حجته ، وهكذا تمر الساعات دون أن تقضى الواجبات ، ويخرج الجمع من المجلس الطويل الثقيل بلا اتفاق على رأي ، أو اتحاد في اتجاه ، أو تصاف في القلوب ، ولو عرف كل منهم متى يحسن أن يتكلم ، ومتى يحسن أن يسكت ، ومتى يحسن أن يستمع ، لاستقامت الأحوال ، وتمت الأعمال ، واستراحت الرجال ! ...

هلا عمرتم مجالسكم يا بني آدم ويا أبناء الإسلام ويا أتباع محمد عليه السلام بتلاوة قرآن أو قراءة حديث أو مطالعة مقال كريم ، أو التباحث فيما يفيد دينا ودنيا ، أو المذاكرة في نافع العلوم والآداب والفنون ، أو التشاور في أمور المسلمين ومصالح العباد والبلاد ، أو الاتفاق على مناهج التخلص من بلايا الذلة والخنوع ، والاتحاد على تحقيق العزة والسيادة للذين يريدونهم مسلمين مؤمنين ، عمالقة في الكون يهدون ، وينصفون وينتصفون ، لا أقزما يذلون ويخضعون ...

لو أنكم تحدثتم في هذا لكان الحديث جميلا ، ولو طال منكم لكان مقبولا ، ولو طال ثم طال ثم طال لكان مطاقا ومحمولا ، وإن كان لكل شيء غاية ونهاية ، وكل أمر عند الله بميقات وميعاد ، ولكل مقام مقال ، ولكل وقت من الأوقات طائفة من الواجبات .

إن هذا اللسان يا هؤلاء هو الذي يورد المهالك ويوقع في المعاطب ويحدث الجراحات التي لا تلتئم ، ويكشف العورات التي لا تستر ، ويفتح الثغرات التي لا تسد ، وهو في الوقت نفسه لو أحكنا قياده وسيلة الهداية وطريق التقويم ، فانظروا يا هؤلاء أين تكونون ، وانظروا إلى ألسنتكم في أي طريق تسير ! ...

لقد أوصى العليم الحكيم رسوله صلوات الله عليه أن يكون نطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبدا ، فجعل له ثلاثة أحوال هي النطق والصمت والنظر ، ولكل منها بطبيعة الحال نصيب ومكان وزمان ، فليكن للنطق مقدار الثلث في هذا المجال ، لا أن يستبد بكل الأوقات والحالات ، فيجعل المرء كالثرثار الخبول ، أو الهاكي الذي لا يعقل ما يقول ...

في لمح وعرضه ؟ وهل من الخير أن تطلق لسانك العريد
فتقص ما تعرف وتشر ما انطوى من أسرار البيوت
والعائلات ؟ وهل من الخير أن تتناول بالذم والقدح على
الشرقاء وأنت من الأخساء ؟ وهل من الخير أن يتجبح المرء
فيعد الوعود الكاذبة الطنانة ثم يكذب فيها ويخون ؟ وهل
من الخير أن تعاد الولوغ في عورات النساء وأحاديث المحانة
والرذيلة بلا خجل أو حياء ؟ !

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أحسنوا أن تسمعوا كما نحسنون أن نتلقوا ، فرب
مستمع خير من ناطق ، وأحكموا رباط هذا الثعبان المسمى
باللسان ، فإنه قتال إذا أطلق بإعقال ، وليكن حديثكم
مما تحبون أن تروه غدا في صحائف أعمالكم ، وتذكروا أن
الحديث المرسل يقول : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة
أكثرهم وقوعا في الباطل » . . . ورب كلمة سوء هوت
بصاحبها في نار جهنم ، فاحذروا ثم احذروا ، واتقوا الله
الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، سألوا
ربكم التوفيق يستجيب لكم .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

دور السينما في العالم

أذاع معهد الإحصاء في باريس الإحصائيات الطريفة التالية
إذا قرر أهل الأرض جميعا الذهاب إلى دور السينما في وقت
واحد فإن القاء ٩٥٠ مليوناً من السكان لن يجدوا أما كن لهم
ذلك أن عدد المقاعد في دور السينما في العالم تبلغ ٤٩ مليون
مقعد ، بينما يبلغ عدد سكان العالم أكثر من ألفي مليون نفس
وفي الولايات المتحدة ٢٥٪ من مجموع مقاعد السينما ، وفي
أوروبا باستثناء روسيا ٢٠٪ ، وفي روسيا ١٣٪

وإذا درسنا نسبة عدد المقاعد إلى عدد السكان وجدنا في
رأس القائمة استراليا ونيوزيلندا حيث يوجد مقعد لكل ستة
أو سبعة من السكان . ثم تأتي السويد بمقعد لكل عشرة ، ثم
أمريكا وبريطانيا بمقعد لكل ١٢ نسمة .

ولقد أدبنا القرآن الكريم في كثير من آياته بأدب
الاستماع ، وجعله شعار الحيار الأبرار ، فهو يقول عنهم :
« الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ويقول : « إنما
يستجيب الذين يسمعون والموثق يعيهم الله » ويقول : « إن
في ذلك لآيات لقوم يسمعون » ويقول : « إن في ذلك
لدكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . والله
قد وصف نفسه بوصف « السميع العليم » مرات تقارب
العشرات ، وهو يقول عن ذاته في هذا الباب : « قد سمع الله قول
التي تجادلن في أزواجهن وتشككن إلى الله والله يسمع تحاوركما »
ويقول : « قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » ويعتق الله
على الإنسان بنعمة السمع ليلفته إلى شكره عليها بحسن
استخدامها وجميل الانتفاع بها فيقول : « إنا خلقنا الإنسان
من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » ويقول :
« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »
ويأمر عباده بالاستماع في أكثر من موضع لما يجب الاستماع
إليه ، فيقول : « وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا
لعلكم ترحمون » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ضرب مثل
فاستمعوا له » ويقول الله لأحد رسله : « وأنا اخترتك فاستمع
لما يوحى » ويصور عباد الرحمن تصويراً يستبين فيه الانتفاع
بالاستماع ، فهو يقول عنهم مثلاً : « وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك
ربنا وإليك المصير » ويقول : « ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا » ويقول أيضاً على لسان الجن
الذين اهتدوا عن طريق السماع : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي
إلى الرشاد فآمننا به » . . . وحيثما ذكر القرآن
أوصاف الخاسرين والكافرين بين أن من أسباب
ذلك عدم الاستماع ، فهو يقول : « وقال الذين كفروا
لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ويقول « وقالوا لو كنا
نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ويقول في الميثوس
من إيمانهم : « ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم
غشاوة » .

والقرآن أيضاً يقول : « لا خير في كثير من نجواهم إلا
من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن
يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »
ويقول الرسول الكريم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليقل خيراً أو ليصمت) فهل من الخير أن ترأى شخصاً
مدحك مادام موجوداً فإذا غاب أنشبت مقاريفك الأثيمة